إشراقة "النهار"... تَخْتَلِفْ

عندما تفتح الصحف تبادرك الأسماء والمقالات والمضامين، من دون أدنى جهد منك. تبادرك وكأنّك تخصّها كما تخصّك هي تماماً وربما أكثر، كأنّما ثمّة علاقة خفيّة بين الأبجديّة وذهنك عندما تَولِيَهَ عناية التجارب والتفكير، والتأمّل، والأرشفة، والبرمجة، والاصطفاء، والانتقائيّة، والتمييز، والمفاضلة، والغربلة، والمسح، والتثبيت وغيرها من العمليات المعقّدة جدّاً التي أصبحنا نَدركها ونَحلّلها ونلتفتَ إليها بشيء من الدراية، والحنكة الذاتيّة، والوعي، بعدما أصبحت علاقتنا وثيقة جداً بالأدوات والأجهزة "الإلكترونية" التي أعطتنا الكثير من التفاصيل التي كانت غائبة عنّا في شكل أو آخر بحكم سهولة التناول والتدوال.

ولأنّ "النهار" كانت ولا تزال سيدة الصحافة اللبنانية، ولأنّ صفحاتها التي أكنّ لها كل احترام وتقدير، وهي التي لطالما احترمت تجربتي وكتابتي وأبجديّتي وحروفي منذ كانت ترصّع هيئة تحريرها أسماء محفورة "كالوشم" كالأستاذ الصحافي السياسي الكبير النائب جبران تويني رحمه الله وارث المجد من والده المؤسس العريق غسان تويني رحمه الله والذي نقل هذا الإرث الباهر إلى كريمتيه نايلة والإعلاميّة ميشيل حفظهما الله، وبالتأكيد الأستاذ الشاعر الكبير أنسي الحاج رحمه الله صديق الحرف والحرفة، والأستاذ الشاعر الكبير شوقي أبو شقرا حفظه الله وأطال عمره صديق الجميع، والذي لم يضنّ بصفحاته على أحد في أيّ وقت، والروائي العزيز إلياس خوري أطال الله عمره حين كان ملحقّ "النهار" مقرّاً إبداعيّاً لا يَعلى عليه عربياً أو محليّاً. كل ذلك ليس في ذاكرتي وحسب بل في وجدان لبنان وكل لبنان، ووجدان كل قارىء ومثقف ومتابع وشغوف بالصحافة وأدوارها المثاليّة التي كانت ولا تزال "النهار" حتى يومنا هذا رغم كل التقهقر والتردّي والتراجع الذي أصاب عموم الجسم الصحافي في لبنان، هي الأولى وفي طليعة الصحافة المَشرِقَة المضيئة والمبهرة.

كل ما تقدّم لم يكن لو لم يطالعني مقال مدير التحرير في جريدة "النهار" الغرّاء الصديق الودود النبيل العزيز الاستاذ غسان حجار، ولا شكّ أنّ افتتاحياته كثيرة وعديدة ومتنوّعة دائماً، ولكن هذه المرّة شعرتُ بأنني معنيّة بكل حرف فيها وأنا أقرأ سرديته المقتضبة الراقية اللائقة الموضوعيّة المتّزنة الواضحة الصريحة المعلنة عن شخصية لطالما أبهرتني وأبهرتْ كل عربي أصيل، وكل غربي معافى من الانحياز والأحكام والأحقاد المَسبقة. إنه مقال عن الدكتور طلال أبوغزاله الذي لم يعد مجرّد اسم كتبتُ عنه وربّما أول من كتبَ عنه منذ أكثر من ثلاثين عاما حين كنت ربما لا أزال تلميذة أحبو على دروب الحياة، وطالبة في السنة الجامعيّة الثانيّة، وكانت "النهار" مربض حرفي الذي لم يتردد في النشر عن أبوغزاله، وكأنّ "النهار" كانت السبّاقة للتنبؤ أن هذا الفلسطيني العربي هو الصورة الأمثَل للإنسان العربي، وأنه سيوثّق نجاحاته صفحة صفحة في أذهان الشرف ووجدانه وصفحاته ليس في تاريخ الأمّة العربيّة وحسب، بل في وجدان العالم أجمع، وهو الذي تبوّأ مناصب فخرية وشغل أمكنة دوليّة وكراسي اعتباريّة حَجزَت له محاضراً في كبريات المنابر في العالم وفي أمّهات الأكاديميّات التعليميّة في أهم جامعات العالم وخصوصا في عقر الدور التعليميّة الأميركيّة المتعصّبة منها والمنحازة بشرسة مشهودة، ورغم كل ذلك استطاع أبوغزاله بفضل حضوره المَبهر وفكره الفذّ أن يفتّت مداميك الذهنيات المتحجّرة، وأن يذيب بنظرياته المستقبليّة معظم الأفئدة الفولاذيّة، وأن يكسر بنجاحاته الواثقة كل الحواجز مهما كانت كتيمة أو مُحكمة. فهل كثير على هذه الشخصيّة الاستثنائيّة أن تصطفّ كل الأقلام الرفيعة المستوى لتكتب عنها تباعاً وِمراراً، وتكتب شغفاً وإعجاباً وانبهاراً على الدوام؟

سيصرخ المغرضون في قرارةِ أنفسهم غيظاً وكمداً ويتساءلون لماذا تكرّسون أبوغزاله كل هذا التكريس؟ ذلك لأنّهم اعتادوا الإخفاق، ولم يتذوّقوا يوماً معنى النجاح، ولم يدخلوا أيّ رواقٍ من أروقة المجد، ولم ينجحوا حتى في الزحف. لهذا هم ينتقدون كل من يكتب عن أبوغزاله، ولهذا يقول المعلّم أبوغزاله، لا تحاربوا أعداءكم، بل أحبوهم كما فعلتُ أنا دوماً، لقد أحببتُ عدوّي كصاحب فضل على مسيرتي، فلولاه لما كبر الهاجس، ولولاه لما اشتدتْ العزيمة ولولاه لما كَبَرَتْ الإرادة ولما عثرتْ على مبررات التحدّي. العدو دافع لنكون الأفضل، فاشكرْ عدوّك لأنه يجعلك الأفضل في نظر نفسك، وفي نظره هو، وكلّما كان حجم الحسد والحقد والاستفزاز أكبر، كبر حجم التحدّي، والتحدّي حلبة كبيرة للنجاح عندما تزرع في رأسك فكرة النجاح وتضعها كما التاج فوق جبينك كَمَلِكٍ متوّج، وتسعى على الدوام للحفاظ على مملكتك التي صنعتها بأدواتٍ ذاتيّة أمّمها قناعاتك واجتهاداتك وصبرك ومساعيك، وللحفاظ على مملكتك تجد نفسك ما إن تخرج من جولة للتحدّي حتى تدخل في أخرى، وهكذا تكثر أوسمتك وتكبر دروعك لمواجهة الحياة وتصير الصِعاب مع الوقت متكئاً لك ومجدافاً للغوص أكثر فأكثر، ولن تتحوّل إلى عائق، إلّا إذا شئتَ أنتَ أنْ تجعلها عائقاً باستحضارِ فكرة الفشل أمام ناظريك على الدوام.

كم نحتاج إلى أن نتعلّم منك الكثير الكثير طلال أبوغزاله، خلاف كل ما تعلمناه وأدمناه سابقاً أيّها المعلّم الإيجابي، فكراً وفقهاً وتطبيقات، وفي مقدم كل العلوم ذاك الوعي والحرص منك كيف أجدتَ دائماً أن تقلب السلبيات إلى قمم الإيجابية، كم نحتاج أن ننتصر على أخطائنا بصوابكِ الحكيم الذي يكاد يمشّط جميع الحقول المعرفيّة ويحرّرها من ألغام التخلّف والجهل والإخفاقات المتوارثة والمتراكمة كسواتر ترابيّة تعدم الرؤية المَستقبليّة أمامنا شبه انعدام تام.

شكراً لـ"النهار" التي جعلتني أكتب ما كتبتُ. شكراً للقلم النبيل الموضوعي الحصيف الحرّ غسان حجار، وشكراً لك على الدوام طلال أبوغزاله وأنت تمنحنا من خبراتك ومعرفتك وتجاربك ونظرياتك وعلمك كل ما توصّلتَ إليه من دون أيّ تردد أو تحفّظ أو حرص...

غادا فؤاد السمّان